

الجرمنت وعلاقتهم التجارية بالفينيقيين في ليبيا القديمة

عبد الحميد أحمد محمد أبوسلة

قسم التاريخ – كلية التربية – جامعة مصراتة

a.abousalla@edu.misuratau.edu.ly

الملخص:

يعد الجرمنت من القبائل الليبية القديمة التي استقرت جنوب ليبيا القديمة، في منطقة وادي الآجال، وأقاموا بها حضارة عرفت باسم حضارة جرمة، تعود آثارها إلى نهاية الألف الثانية ق.م، حوالي 1100 ق.م، وهي أقدم مبانٍ لمدينة جرمة، وجد بها مقابر ولقى أثرية وبعض المقتنيات الخاصة بالزراعة والطقوس الدينية. (حلاق، عامود السماء، ص3).

كما اشتهر الجرمنت بالزراعة والصناعة، وسيطروا على طرق القوافل التجارية التي ساعدت في التعامل المباشر مع الشعوب الوافدة إلى ليبيا القديمة.

من خلال هذا البحث، سيتم الإشارة إلى الفينيقيين ومجيئهم إلى ليبيا القديمة، ثم الإشارة إلى الجرمنت وعلاقتهم التجارية بالشعوب الوافدة وهم الفينيقيون، وطبيعة العلاقة التجارية، وسيطرتهم على الطرق التجارية من الدواخل إلى السواحل.

الكلمات المفتاحية: الجرمنت، الفينيقيون، العلاقات التجارية.

The Garamantes and their commercial relationship with the Phoenicians in ancient Libya

Abdel Hamid Ahmed Amhamed Abu Sala

Department of History – College of Education – Misurata University

Summary: The Jarmanites are one of the ancient Libyan tribes that settled in the south of ancient Libya, in the Wadi Al-Ajal region, and they established a civilization known as the Jarmah civilization. Its ruins date back to the end of the second millennium BC, around 1100 BC. It is the oldest building of the city of Jarmah, in which tombs were found. Archaeological finds and some collectibles related to agriculture and religious rituals. (Barber, The Pillar of Heaven, p. 3).

The Germans were also famous for agriculture and industry, and they controlled the trade caravan routes that helped in direct dealing with the peoples arriving in ancient Libya.

Through this research, reference will be made to the Phoenicians and their arrival to ancient Libya, then reference will be made to the Garamantes and their commercial relationship with the incoming peoples, the Phoenicians, the nature of the commercial relationship, and their control over the trade routes from the interiors to the coasts.

Keywords: Germans, Phoenicians, trade relations.

مقدمة:

إن أول إشارة إلى قبائل الجرمنت، جاءت في كتابات أبي التاريخ المؤرخ الإغريقي هيرودوث عندما أشار إلى سكان فزان في كتابه الرابع ووصفهم بأنهم كثيرو العدد، ويملكون العربات التي تجرها الخيول.

وقد وقع اختياري على موضوع "الجرمنت وعلاقتهم التجارية بالفينيقيين في ليبيا القديمة"، بسبب العلاقة القديمة بين الطرفين، وسلميتها، وعدم تدخل الفينيقيين في حياة الجرمنت السياسية، مما جعلهم يرحبون بهم ويتاجرون معهم، كما كان للفينيقيين الدور البارز في إخراج المنتجات والمصنوعات الليبية القديمة إلى ما وراء البحر، وهو ما ساهم في انتعاش ورواج المعاملات التجارية بين الطرفين.

منطلقاً من إشكالية وضعتها وهي تأصيل العلاقة بين الجرمنت والفينيقيين، وهل كان لهم جذور قديمة، أم أن العلاقة التجارية هي التي جمعت بين الطرفين؟ متحدثاً عن طبيعة العلاقة وماهيتها بين الجرمنت والفينيقيين، موضعاً الآراء التي تحدثت عن أصل الجرمنت ومن أين جاءوا؟

واضحاً فرضية مفادها أن الجرمنت كانت لهم علاقات تجارية قبل وصول الفينيقيين الوافدين إلى ليبيا القديمة وعندما استقروا على الساحل وجدوا الجرمنت خير عون لهم في الوصول إلى السلع الأفريقية النادرة، كالمح والذهب والأبنوس وجلود الفهود والعاج.

قبل الحديث عن الجرمنت وعلاقتهم بالفينيقيين، لا بد لي أن أتحدث عن الفينيقيين وسبب مجيئهم إلى ليبيا القديمة، فهم من الأقوام التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية باتجاه الشمال حتى وصل بهم المقام إلى بلاد الشام، على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وكان ذلك عام 2800 ق.م على أرجح الأقوال (المبار،

2001، ص 98).

ونظراً للرقعة الجغرافية الصغيرة التي كان يقطنها الفينيقيون على الشريط الساحلي للبحر المتوسط وبمرور الزمن ازداد عددهم، وضاعت عليهم الأرض (عصفور، 1981، ص 177)، بالإضافة إلى كثرة الحروب من قبل الآراميين واليهود من الجنوب، والحِيثيين في آسيا الصغرى مما اضطرهم إلى التفكير في الهجرة مجدداً، والبحث عن أماكن أكثر أمناً فشرعوا في الهجرة والاستيطان على أراضي أخرى، والتي دخلوها عن طريق تجارتهم الرائجة فكانوا يجوبون بها البحر بمحاذاة الساحل الأوروبي ذهاباً، والساحل الأفريقي إياباً، حتى استقر بهم المقام في ليبيا القديمة، وأنشأوا بها مراكزهم التجارية، بداية بالمدينة الكبرى قرطاجنة عام 819 ق.م، ومن بعدها المدن الثلاث في ليبيا (لبدة، أويبا، صبراتة) واستقر بهم المقام على أرض ليبيا القديمة، وبدأت علاقاتهم بالسكان الأصليين. (الميار، 2001، ص 114 – 116).

الجرمنت^(*) (أصلهم ونشأتهم):

الجرمنت اسم لقبيلة ليبية سكنت جنوب ليبيا القديمة، في منطقة وادي الآجال في الفترة من (800 ق.م – 644م) (الزدام، د.ت، ص 28)، وأول من ذكر الجرمنت وتكلم عنهم هو المؤرخ الإغريقي هيرودوث فأشار إليهم في كتابه الرابع "وبعد مسافة عشرة أيام مسير أخرى من أوغيلة (أوجلة) يوجد تل ملحى آخر وماء وأشجار نخيل كثيرة ومثمرة، كما هو في الأماكن الأخرى، وبشر يسكنون هذا المكان اسمهم الغرامنتيس (الجرامنتس) وهم قوم كثير العدد، وهؤلاء يزرعون التربة بعد أن يبسطوها فوق الملح، ويكون الطريق من هنا إلى أكلة اللوتس قصيراً جداً، حيث تكون المسافة حتى هؤلاء ثلاثين يوماً من المسير، ولدى هؤلاء توجد الثيران التي ترعى وهي متراجعة إلى الخلف...) (هيرودوث، د.ت، ص 183).

لقد أوضح لنا هيرودوث بأن موطن الجرمنت يقع على مسيرة عشرة أيام إلى الغرب من أوجلة، وعلى مسيرة ثلاثين يوماً إلى الجنوب من موطن أكلة اللوتس، ووصفهم بأنهم كثير العدد (عيسى، 2009، ص 138)، وقد عثر حديثاً أكثر من أربعين ألف قبر في مقبرة واحدة قرب مدينة جرمة، وحوالي مائة ضريح بجوارها، وهذا ما يدل على كثرة عدد أفراد الجرمنت.

(*) "جرمة أو جراما هي عاصمة الجرمنت وهما مدينتان، الأولى في أعلى الجبل وهي الأقدم وتعود إلى 1100 ق.م، والثانية فهي في سطح الجبل وهي الأحدث والتي دمرها الرومان في حدود 210م"، أما عن أقدم معالم حضارة الجرمنت فهي الحذاء الذهبي التي عثر عليه في إحدى مقابر ملوك الجرمنت.

كما أشار إليهم بامتلاكهم العربات التي تجرها الخيول وهم يطاردون بها الاثيوبيين، وكانوا يضعون التراب على الملح، ومن ثم يزرعون، وكانت لهم ثيران ترعى القهقري. (عيسى، 2009، ص 138).

وقد دار الجدل حول أصل الجرمنت فهناك من يؤصلهم إلى شعوب البحر، وذهب إلى هذا الرأي "هنري لوث". (لوث، 2009، ص 165).

حيث افترض أن الجرمنيين هم خليط بين شعوب البحر والقبائل الليبية القاطنة إلى الغرب من مصر والذين تحالفوا مع بعضهم لغزو وادي النيل (هويدي، 2010، ص 81)، بينما يرى سيرجي أن الجرمنيين هم أقرباء الطوارق، وفق دراسة بحثية ضمت ثمانية وتسعين هيكلًا عظميًا، ويضاف إليها نتائج دراسة الصخور والفنون القديمة (دانيلز، 1991، ص 42).

وهناك من يرى أن الجرمنت أصلهم من قبائل البحر المتوسط التي هاجرت في القرن العاشر ق.م، ونزلوا على شواطئ خليج قابس وفي جزيرة جربة، وانصهروا بالسكان المحليين إلى أن استقر الكنعانيون في القرن الثامن ق.م في تلك المنطقة، وطردوهم منها، وتركوا الساحل والتجأوا إلى الدواخل، وعبروا إلى فزان عن طريق واحة غدامس وأدري إلى وادي الآجال، وهذا الرأي يفترض أول ظهور الجرمنت في فزان (أيوب، 1969، ص 133).

طبيعة العلاقة بين الجرمنت والفينيقيين:

قبل الشروع في هذه الجزئية، لا بد من وضع عدة تساؤلات وهي:

ماهية العلاقة بين الجنسين؟ وكيف استطاع الجرمنت التعامل مع الفينيقيين؟ وهل الجرمنت عرفوا التجارة قبل وصول طلائع الفينيقين الوافدة إلى شمال ليبيا القديمة؟ أم أن هناك اتصالاً مبكراً بين الطرفين؟

إن الرسوم والنقوش الصخرية في صحراء الأكاكوس وتاسيلي وضحت ارتياد القبائل الليبية القديمة لطرق القوافل التجارية، ونقل البضائع منذ عصور سبقت مجئ الفينيقين واستقرارهم في غرب ليبيا القديمة (هويدي، 2010، ص 112).

كما أفادت أعمال التنقيب في فزان عن وجود علاقات اقتصادية بين الجرمنت وبعض الحضارات المجاورة، حيث ثم العثور على بعض الموجودات المستوردة من بلاد الأغرريق ووادي النيل والسودان (الزدام، د.ت، ص 56)، كما أنهم كانوا مسيطرين على أغلب طرق التجارة التي تربطهم بأواسط أفريقيا، وأرض

السودان، والنيجر، والسنغال، حيث يقومون بنقل الإنتاج المحلي كالمح الملح المتوفر بكثرة في أرضهم، ليستبدلوه بالذهب الأفريقي، أما السلع المستوردة التي يسوقونها فتتمثل في العاج، والأخشاب، وريش النعام، وهناك المصنوعات الخزفية والزجاجية والملابس والمعادن والأحجار الكريمة والأصباغ (الزدام، د.ت، ص 57).

هذا التطور الاقتصادي والثقافي الذي طرأ على الجرمنت من خلال الرسوم والنقوش الصخرية يبدو واضحاً قبل قدوم الكنعانيين (الفنيقيين) إلى غرب ليبيا القديمة، وإنشاء مراكزهم التجارية بها.

قبل ثلاثة آلاف سنة، كان ساحل الشمال الأفريقي "ليبيا القديمة" بالنسبة للفنيين مرشداً صالحاً ومفيداً، وكان أيضاً ملجأ لهم في رحلاتهم الطويلة إلى الأماكن المجهولة (رايت، 1972، ص 22).

وقد أتى هؤلاء البحارة إلى سواحل ليبيا القديمة، وكانت لهم مهارة خاصة بالتجارة، ولأسباب سياسية واقتصادية وربما عسكرية تركوا مقامهم في أرضهم "بلاد الشام"، وبدأوا بالتوسع والمجرة مستخدمين أسهل الطرق لهم وهو البحر (رايت، 1972، ص 23). وبوصولهم إلى سواحل ليبيا القديمة، بدأت عملية الاحتكاك التجاري الذي وصفه المؤرخ الأغرقي هيردوت بالتجارة الصامتة، فيعرض حديثه قائلاً "...إنه توجد أرض في ليبيا وبشر يسكنونها وراء أعمدة هيراكليس، وإنهم عندما يصلون (الفنيقيون) إلى هؤلاء يفرغون بضائعهم ويضعونها بنظام قرب الشاطئ ثم يركبون إلى السفن ويرسلون دخاناً، وما إن يرى السكان المحليون الدخان حتى يأتوا إلى شاطئ البحر ويضعوا ذهباً ثميناً للسلع ثم يتعدون عن البضائع، فينزل الكارخيدونيون (القرطاجيون) ويفحصون الذهب، فإن تبين لهم أنه مساوٍ لقيمة السلع أخذوه وغادروا، أما إذا كان غير مساوٍ فإنهم يعودون إلى السفن وينتظرون، فيعود أولئك ويضيفون إلى الذهب الذي كانوا قد وضعوه إلى أن يرضى هؤلاء ولا يظلم فريق منهم الآخر..." (هيردوت، د.ت، ص 196).

من خلال هذا النص، يتضح أن الليبيين كانت لهم تجارة واضحة مع الكنعانيين (الفنيقيين)، وكان ذلك قبل التأسيس أي (تأسيس المراكز)، إلا أنني تساءل: هل عرف الليبيون التجارة قبل قدوم الكنعانيين؟ وهل كانت السلع تصل إلى الشمال (شمال ليبيا القديمة) قبل أن تصل وفود الكنعانيين إليها؟ ومن الذي أوصل كل البضائع التي كانوا يقايضون بها التجار الكبار من الكنعانيين؟

ذكر (هويدي) في كتابه الحضارة الجرمنية، أن الفنيقيين لم يظهروا أي رغبة في التوغل إلى داخل أفريقيا- يقصد بها ليبيا القديمة - واكتفوا بإنشاء المراكز التجارية على الساحل الليبي، وانتظار ما تجلبه قوافل التجار الجرمنيين من بضائع أواسط أفريقيا، لماذا؟

لأن الجرمنت يسيطرون سيطرة تامة على طرق التجارة الداخلية (هويدي، 2010، ص 114).
وأنا أقبل مع هذا الرأي وأسلم بوجود تبادل تجاري بين الجرمنيين والكنعانيين قبل تأسيس المراكز، لذلك فضل الكنعانيون "الفنيقيون" البقاء على الساحل وانتظار ما تشحنه القوافل الجرمنية من البضائع الصحراوية، القادمة من فزان وغرب أفريقيا ووسطها (هويدي، 2010، ص 115).

يعد الكنعانيين من الشعوب الأولى التي مارست الملاحة البحرية والتجارية في العالم القديم، وبوصولهم إلى غرب البحر المتوسط حوالي أواخر الألف الثانية ق.م لم يكن هدفهم الاستيطان، بل كان هدفهم التجارة والحصول على المواد الخام والبحث على المعادن (عصفور، 1981، ص 117).

لذلك أخذوا يبحثون على أماكن صالحة لرسو سفنهم، من أجل التبادل التجاري مع السكان المحليين، وإصلاح المراكب والتزود بالمؤن، وهذا ما عرف بمرحلة الارتداد المبكر، أو مرحلة الاستكشاف المبكر، إذ أن الكنعانيين (الفنيقيين) كان يبحثون عن الأسواق التجارية والمواد الخام، وقد استخدموا طريقتين طريق شمالي بمحاذاة الشواطئ الجنوبية لبلاد الأغر يق وصقلية وجنوب إيطاليا وسردينيا وكورسيكا وشبه جزيرة إيبيريا، وطريق جنوبي بمحاذاة ساحل شمال أفريقيا، وقد كانوا يرسون بسفنهم على الشواطئ حوالي كل ثلاثين ميلاً (منجتون، 1985، مج 2، ص 455).

وعندما تأسست قرطاجنة في 814 ق.م ارتبطت بعلاقات تجارية مع أواسط أفريقيا، وذلك من خلال التوغل من السواحل عبر الدواخل (الميار، 2001، ص 189)، ويوضح ذلك ما قام به أحد التجار القرطاجيين واسمه "ماغو" بعبور الصحراء ثلاث مرات برفقة قوافل الجرمنت (هويدي، 2010، ص 115).

أليس من الممكن أن تقبل بالافتراض الذي يدور حول أصل الجرمنت الذي مفاده ما أسلفته آنفا بأنهم قبائل هاجروا في القرن العاشر ق.م ونزلوا على شواطئ خليج قابس، وبعد مجئ الكنعانيين واستقرارهم في المنطقة، اضطروا إلى ترك الساحل وحدث النزوح إلى الدواخل ومن ثم إلى أواسط الصحراء الليبية (أيوب، 1969، ص 133). هذا الرأي تبناه "محمد أيوب" الذي يدعّمه بوجود علاقات تجارية ومن ثم رحلات كشفية كنعانية تمت بتأمين جرمنتي، كيف لا؛ والعلاقات تأصلت في وقت محدود من الدواخل إلى السواحل.

لقد لعب الجرمنت دوراً بارزاً في نقل الحضارة بين بلدان شمال أفريقيا ومناطق ما وراء الصحراء،

وهو نفس الدور الذي لعبه الكنعانيون (الفنيقيون) في حوض البحر المتوسط بل أنهم أناروا الدروب، وعرفوا الوافدين إلى ليبيا القديمة الطرق المؤدية إلى عالمها المجهول، فتمثله في ذلك بالحركات الكشفية للقارة في العالم القديم (عيسى، 2009، ص 139).

اقتصاد الجرمنت قبل تأسيس المراكز الفنيقية:

1. الزراعة:

أشار هيرودوث أن الجرمنت يزرعون الأرض ثم ييسوطها بالملح، حيث دون "...وهؤلاء يزرعون التربة بعد أن ييسطوها فوق الملح..." (هيرودوث، د.ت، ص 183).

كما دلت التنقيبات الأثرية عن وجود بقايا حبوب وفاكهة وأشجار، وأن المنطقة الواقعة في زنكرا كانوا يزرعون القمح والشعير والكروم والعنب (الميار، 2001، ص 57).

كما استخدم الجرميون نظام الري عبر القنوات وهي عبارة عن سلسلة من الآبار الارتوازية تربطها قناة من أسفل؛ تأخذ المياه من الحرف وترسلها إلى الأجزاء السفلى من الوادي عن طريق نفق قليل الانحدار، وقد وصل عدد القنوات في فزان إلى 600 قناة، يبلغ عمق الممر الواحد حوالي 40 متر (الزدام، د.ت، ص 75).

2. الصناعة:

تنوعت الأنشطة والصناعات في مدينة جزمة، ومنها الحلبي الذهبية، والأحجار الكريمة ومنه العقيق الأحمر (أيوب، 1969، ص 69)، كما برعوا في صناعة الغزل والنسيج، وكذلك صناعة الأواني الخزفية والفخارية وبلغوا فيها قمة في التطور والإبداع، وتم الكشف والتنقيب عن أعداد كبيرة من الأفران المستخدمة لصناعة المنتجات الفخارية كما وجدت مقبرة كاملة تحتوي على مصابيح فخارية محلية الصنع (هويدي، 2010، ص 166).

كما عرف الجرمنت صناعة العقاقير الطبية، التي استخراجها من الأعشاب الطبية (الميار، 2001، ص 55).

كما أنهم استوردوا العاج، وهو من السلع التي دخلت تجارة الصحراء منذ عصر الجرمنت

والفنيقيين وقد استخدم العاج المستخرج من أنياب الفيلة وأفراس النهر في أغراض مختلفة، حيث كانت تصنع منه أواني الشرب والموارد العاجية وتمثيل الآلهة، وقد عثر على نقوش تكرس أنياب فيل للآلهة الحارسة لمدينة لبدة الكبرى وويات. (الميار، 2001، ص 190).

الخاتمة:

من خلال ما تقدم نُخَلِّص إلى:

1. كانت التجارة عند الجرمنت أساساً هاماً واعتمدوا عليها بجانب الزراعة.
2. سيطرة الجرمنت على الطرق التجارية سهّلت مهمتهم في احتكار التجارة، وأصبحوا أسيادها مع القوى الآتية إلى القارة.
3. من خلال ما تقدم نلاحظ طبيعة العلاقات الجرمنية الفينيقية، وهي ربما تكون متأصلة منذ القدم.
4. إن الجرمنت أول من طرح بعض المنتجات الصحراوية والشمالية في المناطق الاستوائية (هويدي، 2010، ص 166).
5. ساهمت التجارة عند الجرمنت في نقل الموروث الحضاري والثقافي من الداخل إلى المناطق المجاورة.

قائمة المصادر والمراجع

1. هيروودوث (د.ت) الكتاب الرابع، ترجمة محمد المبروك الدويب، ط1، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي.
2. الزدام، نجلاء عبدالله (د.ت) الجرمنت وعلاقتهم السياسية والتجارية مع المدن الساحلية خلال العصر الروماني، رسالة ماجستير (غير منشورة)، د.ن، د.م.
3. الميار، عبدالحفيظ (2001) الحضارة الفينيقية في ليبيا، ط1، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، د.م.
4. أيوب، محمد سليمان (1969) جرمة من تاريخ الحضارة الليبية، ط1، دار المصراقي للطباعة والنشر، طرابلس، ليبيا.
5. دانيلز، تشارلز (1991) الجرمنتيون سكان جنوب ليبيا القدماء، تعريب أحمد اليازوري، ط2، دار الفرجاني، طرابلس.

6. رايت، جون (1972) تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور، تعريب عبدالحفيظ الميار، أحمد البازوري، ط1، دار الفرجاني، طرابلس، ليبيا.
7. عصفور، محمد أبو المحاسن (1981) المدن الفينيقية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.
8. عيسي، محمد علي (2009) الجذور التاريخية لسكان المغرب القلتم، ط1، دار الأصالة، طرابلس.
9. منجتون، ب.ه. وار (1985) (العصر القرطاجي)، تاريخ أفريقيا العام، مج2، جين أفريك، اليونسكو، باريس.
10. هويدي، سالم محمد (2010) الحضارة الجرومية، ط1، منشورات المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، طرابلس.
11. لوث، هنري (2009) لوحات تاسيلي، تعريب أنيس زكي حسن، ط2، دار الفرجاني، طرابلس.